المركز الماركسي - اللينيني للدراسات و الأبحاث و التكوين

بيان الحزب الشيوعي

مكتبة النجمة الحمراء

بيان الحزب الشيوعي

هناك شبح يجول في اوروبا – هو شبح الشيوعية . وقد اتحدت كل قوى اوروبـــا العجوز في حلف مقدس لملاحقته والتضييق عليه من البابا والقيصر الى مترنيخ وغيزو ، ومن الراديكاليين في فرنسا الى رجال الشرطة في المانيا

اي حزب معارض لم يتهمه خصومه القابضون على زمام السلطة بالشيوعية ؟ واي حزب معارض لم يلصق ، بدوره ، تهمة الشيوعيـة – الدامغة – سواء باقســام المعارضة التي هي اكثر تقدماً منه ، ام باخصامه الرجعيين ؟

ومن كل ذلك نستخلص شيئين :

اولهما ان الشيوعية اصبحت قوة معترفاً بها من جميع القوى الاوروبية .

والثاني ان الشيوعيين قد آن لهم ان يعرضوا امام العالم باسره مفهوماتهم واهدافهم وميولهم ، ويدحضوا خرافة شبح الشيوعية ببيان من الحزب نفسه

ولهذه الغاية اجتمع في لندن شيوعيون من مختلف القوميات ووضعوا «البيان» التالي الذي ينشر باللغات الانجليزية والفرنسية والالمانية والايطالية والفلمنكية والدانماركية .

١

البرجوازيون والبروليتاريون *

ان تاريخ كل مجتمع ** الى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ نضال بين الطبقات .

---

* نعني بالبرجوازية طبقة الراسماليين المعاصرين ، مالكي وسائل الانتاج الاجتماعي الذين يستخدمون العمل المأجور ونعني بالبروليتاريا طبقة العمال الاجراء المعاصرين الذين لا يملكون اية وسائل انتاج فيضطرون بالتالي الى بيع قوة عملهم لكي يعيشوا . (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية عام ١٨٨٨ .)

** وعلى الاصح التاريخ المكتوب : ففي عام ١٨٤٧ كان تاريخ النظام الاجتماعي الذي سبق كل تاريخ مكتوب ، اي عهد ما قبل التاريخ ، مجهولا تقريبا . وبعدئذ اكتشف هاكستهاوزن في روسيا الملكية المشاعية للارض ، وبرهن موريز ان هذه الملكية المشاعية كانت الاساس الاجتماعي الذي انطلق منه تاريخيا تطور جميع القبائل الجرمانية ، ثم تبين شيئا فشيئا ان المشاعة الريفية مع التملك الجماعي للارض كانت في الماضي او تؤلف الآن الشكل الابتدائي للمجتمع في كل مكان من الهند الى ارلنده واخيرا اتضح تماما التنظيم الداخلي لهذا المجتمع الشيوعي الابتدائي بما فيه من ميزات اساسية ، عقب اكتشاف مورغان الذي بين الطبيعة الحقيقية للعائلة الابتدائية الاولى ومكانها من القبيلة وبانحلال هذه المشاعة الابتدائية يبدأ انقسام المجتمع الى طبقات متمايزة تصبح آخر الامر متعارضة

وقد حاولت تتبع سير هذا الانحلال في كتابي Der Ursprung der Familie, des Privateigentums und des Staats", 2.Aufl., Stuttgart, 1886 (« اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » ، الطبعة الثانية ، شتوتغارت ، ١٨٨٦ .) (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية سنة ١٨٨٨ .) .

فالحر والعبد ، والنبيل والعامي ، والسيد الاقطاعي والقن ، والمعلم * والصانع ، اي بالاختصار المضطهِدون والمضطهَدون ، كانوا في تعارض دائم ، وكانت بينهم حرب مستمرة تارة ظاهرة وتارة مستترة ، حرب كانت تنتهي دائما اما بانقلاب ثوري يشمل المجتمع باسره واما بانهيار الطبقتين المتناضلتين معا

وخلال العهود التاريخية السابقة نجد المجتمع في كل مكان تقريبا ، منظما تنظيما متسلسلاً ، والاوضاع الاجتماعية على مراتب ودرجات متفاوتة ففي روما القديمة نجد النبلاء ، ثم الفرسان ، ثم العامة ، ثم الارقـــاء ؛ في القرون الوسطى نجد الاقطاعيين الاسياد ، ثم الاقطاعيين الاتباع ، ثم المعلمين ، ثم الصناع ، ثم الاقنان ، ونجد تقريبا داخل كل طبقة من هذه الطبقات مراتب ودرجات خاصة .

امـا المجتمع البرجوازي الحديث الذي نشـــا على انقاض المجتمع الاقطاعي فانه لم يقض على هذا التناحر بين الطبقات ، بل اقام طبقات جديدة بدلاً من القديمة ، واوجد ظروفا جديدة للاضطهاد واشكالاً جديدة للنضال .

الا ان الذي يميز عصرنا الحاضر ، عصر البرجوازية هو انه جعل التناحر الطبقي اكثر بساطة فان المجتمع آخذ في الانقســـام اكثر فاكثر الى معسكرين فسيحين متعارضين ، الى طبقتين كبيرتين ، العداء بينهمـــا مباشر – همـــا البرجوازية والبروليتاريا

---

* المعلم : عضو كامل الحقوق في الحرفة ، معلم في داخل المشغل لا رئيسه . (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية سنة ١٨٨٨ .)

فمن اقنان القرون الوسطى نشات عناصر المدن الاولى ؛ ومن هؤلاء السكان المدنيين خرجت العناصر الاولى للبرجوازية .

ثم كان اكتشـــاف اميركا والطريق البحري حول شواطئ افريقيا الذي قدم للبرجوازية الصاعدة ميداناً جديداً للعمل . فان اسواق الهند والصين واستعمار اميركا والتبادل مع المستعمرات وتعدد وسائل التبادل وتدفق البضائع بوجه عام ، كل هذه الامور دفعت التجارة والملاحة والصناعة الى الامام بقوة لم تكن معروفة الى ذلك الحين وامنت بذلك نمواً سريعاً للعنصر الثوري في المجتمع الاقطاعي الآخذ في الانحلال .

ولم يعد في استطاعة اسلوب الانتاج الصناعي القديم ، الاقطاعي او الحرفي ، ان يلبي الحاجات التي كانت تزداد مع افتتاح الاسواق الجديدة ، فحلت المانيفاكتورة محله ، واخذت الفئة الصناعية المتوسطة مكان المعلمين ، واختفى تقسيم العمل بين هيئات الحرف المختلفة امام تقسيم العمل في قلب الورشة نفسها .

الا ان الاسواق كانت تتسع وتتعاظم دون انقطاع ، والطلب يزداد باستمرار ، فاصبحت المانيفاكتورة نفسهـــا غير وافية بالحاجة وعندئذ احدث البخار والآلة انقلاباً ثورياً في الانتاج الصناعي ، وحلت الصناعة الكبرى الحديثة محل المانيفاكتورة ، واخلت الفئة الصناعية المتوسطة الميدان لرجال الصناعة اصحاب الملايين ، لقواد الجيوش الصناعية الحقيقية اي لبرجوازيي العصر الحاضر

وخلقت الصناعة الكبرى السوق العالمية التي هياها اكتشاف اميركا . وادت السوق العالمية الى توسع التجارة والملاحة وتقدم المواصلات البرية بصورة هائلة ثم عاد هذا التوسع فاثر بدوره في مجرى الصناعة ، وكلمـــا كانت الصناعة والتجارة والملاحة

والسكك الحديدية تتقدم وتنمو ، كانت البرجوازية كذلك تنمو وتتعاظم وتضاعف رساميلها وتدفع الى الوراء جميع الطبقات التي خلفتها القرون الوسطى .

فالبرجوازية المعاصرة نفسها ، كما نرى ، هي نتيجة تطور طويل وسلسلة من الثورات في اساليب الانتاج والتبادل

وكانت كل مرحلة من مراحل التطور التي مرت بها البرجوازية يقابلها رقي سياسي مناسب تحرزه هذه الطبقة فقد كانت البرجوازية في بادئ الامر فئة مضطهدة تحت عسف الاقطاعيين واستبدادهم ، ثم كانت جماعة مسلحة تدير نفسها بنفسها في الكومونة • ، هنا جمهورية مدينية مستقلة ، وهناك طبقة ثالثة ضمن المملكة تدفع الجزية للملك ، ثم في عهد المانيفاكتورة كانت البرجوازية قوة توازن رجحان قوة النبلاء في الممالك ذات الحكم المقيد او المطلق وحجر الزاوية للممالك الكبرى بوجه عام ، وآخراً منذ ان توطدت الصناعة الكبرى وتاسست السوق العالمية استولت البرجوازية على كل السلطة السياسية في الدولة التمثيلية الحديثة . فالحكومة الحديثة ليست سوى لجنة ادارية تدير الشؤون العامة للطبقة البرجوازية باسرها .

• «الكومونة» ـ هكذا كانت تسمى في فرنسا المدن الناشئة حق قبل ان تنتزع من مالكيها واسيادها الاقطاعيين الادارة المحلية الذاتية والحقوق السياسية «للطبقة الثالثة» وبوجه عام ، اخذت انجلترا هنا نموذجا لتطور البرجوازية الاقتصادي واخذت فرنسا نموذجا لتطور البرجوازية السياسي (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية عام ١٨٨٨ .)

الكومونة ـ هكذا كان سكان المدن في ايطاليا وفرنسا يسمون مجموعتهم المدينية ، فور انتزاعهم او شرائهم من سادتهم الاقطاعيين حقوقهم الاولية في ادارة ذاتية . (ملاحظة انجلس للطبعة الالمانية عام ١٨٩٠ .)

لقد لعبت البرجوازية في التاريخ دوراً ثوريا للغاية .

فحيثما استولت البرجوازية على السلطة سحقت تحت اقدامها جميع العلاقات الاقطاعية والبطريركية والعاطفية ، وحطمت دون رأفة الصلات المزخرفة التي كانت في عهد الاقطاعية تربط الانسان «بسادته الطبيعيين» ولم تبق على صلة بين الانسان والانسان الا صلة المصلحة الجافة والدفع الجاف «نقداً وعداً» واغرقت الحمية الدينية وحماسة الفرسان ورقة البرجوازية الصغيرة في مياه الحساب الجليدية المشبعة بالانانية ، وجعلت من الكرامة الشخصية مجرد قيمة تبادل لا اقل ولا اكثر ، وقضت على الحريات الجمة ، المكتسبة والممنوحة ، واحلت محلهـــا حرية التجارة وحدها «هذه الحرية القاسية التي لا تشفق ولا ترحم . فهي ، بالاختصار ، استعاضت عن الاستثمار المقنع بالاوهام الدينية والسياسية باستثمار مكشوف شائن مباشر فظيع

وانتزعت البرجوازية عن المهن والاعمال التي كانت تعتبر الى ذلك العهد محترمة مقدسة ، كل بهائها ورونقها وقداستها ، وادخلت الطبيب ورجل القانون والكاهن والشاعر والعالم في عداد الشغيلة الماجورين في خدمتها

ومزقت البرجوازية الحجاب العاطفي الذي كان مسدلا على العلاقات العائلية واحالتها الى علاقات مالية صرف .

وبينت البرجوازيـــة كيف ان الكسل والخمول في القرون الوسطى كانا التتمة الطبيعية لذلك المظهر الفظ للقوة الجسمانية التي تعجب بها الرجعية ايما اعجاب . والبرجوازية هي اول من اظهر ما يستطيع ابداعه النشاط الانساني ، فقد خلقت عجائب تختلف كل الاختلاف عن اهرامـــات مصر والاقنية الرومانيـــة

والكنائس القومية ، وقادت حملات لا تشابه في شيء تنقلات الشعوب والحروب الصليبية (١٢) .

ان البرجوازية لا تعيش الا اذا ادخلت تغييرات ثورية مستمرة على ادوات الانتاج ، وبالتالي على علاقات الانتاج ، اي على العلاقات الاجتماعية بأسرها . وبعكس ذلك ، كانت المحافظة على اسلوب الانتاج القديم ، الشرط الاول لحياة الطبقات الصناعية السالفة . فهذا الانقلاب المتتابع في الانتاج ، وهذا التزعزع الدائم في كل العلاقات الاجتماعية ، وهذا التحرك المستمر وانعدام الاطمئنان على الدوام ، كل ذلك يميز عهد البرجوازية عن كل العهود السالفة ، فان كل العلاقات الاجتماعية التقليدية الجامدة ، وما يحيط بها من مواكب المعتقدات والافكار ، التي كانت قديما محترمة مقدسة ، تنحل وتندثر ؛ اما التي تحل محلها فتشيخ ويتقادم عهدها قبل ان يصلب عودها . وكل ما كان تقليديا ثابتا يطير ويتبدد كالدخان ، وكل ما كان مقدسا يعامل باحتقار وازدراء ويضطر الناس في النهاية الى النظر لظروف معيشتهم وعلاقاتهم المتبادلة باعين يقظة لا تغشاها الاوهام .

ويدافع الحاجة الدائمة الى اسواق جديدة تنطلق البرجوازية الى جميع انحاء الكرة الارضية . فينبغي لها ان تدخل وتتغلغل في كل مكان ، وتوطد دعائمها في كل مكان ، وتقيم الصلات في كل مكان .

وباستثمار السوق العالمية تصبغ البرجوازية الانتاج والاستهلاك في كل الاقطار بصبغة كوسموبوليتية وتنزع من الصناعة اساسها الوطني ، بين ياس الرجعيين وقنوطهم ، فتنقرض الصناعات الوطنية التقليدية القديمة او تصبح على وشك ان تنقرض . وتحل محلها صناعات جديدة يصبح ادخالها وتعميمها

مسالة حيوية لكل الامم المتمدنة ، صناعات لم تعد تستعمل المواد الاولية المحلية بل المواد الاولية الآتية من ابعد مناطق العالم ولا تستهلك منتجاتها في داخل البلاد نفسها فحسب بل في جميع انحاء المعمورة . وتتولد ، بدلا من الحاجات القديمة التي كانت تكفيها المنتجات الوطنية ، حاجات جديدة تتطلب لكفايتهـا منتجات اقصى الاقطار ومختلف المناخات . ومكان الانعزال المحلي والوطني السابق والاكتفاء الذاتي ، تقوم بين الامم صلات شاملة وتصبح الامم متعلقة بعضها ببعض في كل الميادين . وما يقال عن الانتاج المادي ينطبق ايضا على الانتاج الفكري . فثمار النشاط الفكري عند كل امة تصبح ملكا مشتركا لجميع الامم ويصبح من المستحيل اكثر فاكثر على اية امة ان تظل محصورة في افقها الضيق ومكتفية به . ويتالف من مجموع الآداب القومية والمحلية ادب عالمي .

وتجر البرجوازية الى تيار المدنية كل الامم ، حتى اشدها همجية ، تبعا لسرعة تحسين جميع ادوات الانتاج وتسهيل وسائل المواصلات الى ما لا حد له فان رخص منتجاتها هو في يدها بمثابة مدفعية ضخمة تقتحم وتخرق كل ما هنالك من اسوار صينية ، وتنحني امامها رؤوس اشد البرابرة عداء وكرها للاجانب . وتجبر البرجوازية كل الامم ، تحت طائلة الموت ، ان تقبل الاسلوب البرجوازي في الانتاج وان تدخل اليها المدنية المزعومة ، اي ان تصبح برجوازية . فهي ، بالاختصار ، تخلق عالما على صورتها ومثالها

واخضعت البرجوازية الريف للمدينة ، فانشات المدن الكبرى وزادت سكان المدن زيادة هائلة بالنسبة لسكان الارياف ، والتزعت بذلك قسما كبيرا من السكان من بلادة الحياة القروية .

وكما انها اخضعت الريف للمدينة ، كذلك اخضعت البلدان الهمجية ونصف الهمجية للبلدان المتمدنة ، الامم الفلاحية – للامم البرجوازية ، الشرق – للغرب

وتقضي البرجوازية اكثر فاكثر على تبعثر وسائل الانتاج والملكية والسكان . وقد كدست السكان ومركزت وسائل الانتاج وجمعت الملكية في ايدي افراد قلائل . وكانت النتيجة المحتومة لهذه التغييرات نشوء التمركز السياسي فالمقاطعات المستقلة التي كانت العلاقات بينها تكاد تكون علاقات اتحادية ، والتي كانت لها مصالح وقوانين وحكومات وتعرفات جمركية مختلفة ، انما جمعت كلها ، دمجت في امة واحدة مع حكومة واحدة ، وقوانين واحدة ، ومصلحة قومية طبقية واحدة ، وراء حاجز جمركي واحد .

وخلقت البرجوازية ، منذ تسلطها الذي لم يكد يمضي عليه قرن واحد ، قوى منتجة تفوق في عددها وعظمتها كل ما صنعته الاجيال السالفة مجتمعة . فان اخضاع قوى الطبيعة ، واستخدام الآلات وتطبيق الكيمياء في الصناعة والزراعة ، ثم الملاحة البخارية والسكك الحديدية والتلغراف الكهربائي ، وهذه القارات الكاملة التي كانت بوراً فاخصبت ، وهذه الانهار والترع التي اصلحت وراحت البواخر تمخر عبابها ، وهذه الشعوب التي كانما قذفتها من بطن الارض قوة سحرية ، – اي عصر سالف واي جيل مضى كان يحلم بـان مثل هذه القوى المنتجة العظيمة كامنة في قلب العمل الاجتماعي !

وهكذا تبين لنا ان وسائل الانتاج والتبادل التي قامت البرجوازية على اساسها ، نشأت داخل المجتمع الاقطاعي ، ثم ، لما بلغت هذه الوسائل حداً معيناً من التقدم والرقي ، لم تعد

الظروف التي كان المجتمع الاقطاعي ينتج ويبادل ضمنها ، لم يعد التنظيم الاقطاعي للزراعة والصناعة ، اي بكلمة واحدة ، لم يعد النظام الاقطاعي للملكية يتفق مع القوى المنتجة في ملء تقدمها ، بل اصبح يعرقل الانتاج عوضاً عن تطويره ، ثم تحول الى قيود تكبله ، واصبح من الواجب تحطيم هذه القيود ، فحطمت .

وحلت محلها المزاحمة الحرة ، يرافقهـــا نظام اجتماعي وسياسي يناسبها ، وقامت معها السيطرة الاقتصادية والسياسية للطبقة البرجوازية .

وتجري الآن امام اعيننا حركة مماثلة لهذه فان علاقات الانتاج والتبادل البرجوازية وعلاقات الملكية البرجوازية ، اي كل هذا المجتمع البرجوازي الحديث الذي خلق وسائل الانتاج والتبادل العظيمة الهائلة اصبح يشبه الساحر الذي لا يدري كيف يقمع ويخضع القوى الجهنمية التي اطلقها من عقالها بتعاويذه . فليس تاريخ الصناعة والتجارة منذ بضع عشرات السنين سوى تاريخ تمرد القوى المنتجة الحديثة على علاقات الانتاج الحديثة ، على علاقات الملكية التي يقوم عليها وجود البرجوازية وسيطرتها . ويكفي ذكر الازمات التجارية التي تقع بصورة دورية وتهدد اكثر فاكثر وجود المجتمع البرجوازي باسره فكل ازمة من الازمات لا تكتفي باتلاف كمية من المنتجات المصنوعة الجاهزة فقط ، بل تقضي ايضاً على قسم كبير من القوى المنتجة القائمة نفسها . وينقض على المجتمع وباء لم يكن ليعتبر في جميع العهود السابقة سوى خرافة غير معقولة ، ـ هذا الوباء ، هو فيض الانتاج . فيرتمي المجتمع فجاة في حالة همجية حتى ليخيل للمرء ان هنالك مجاعة او حرباً طاحنة تقطع عن المجتمع وسائل معيشته وموارد رزقه ، وكانما الصناعة والتجارة اتى عليهما

الخراب والدمار . ولم ذلك ؟ ذلك لانه اصبح في المجتمع شيء كثير من المدنية ، وكثير من وسائل العيش ، وكثير من الصناعة والتجارة . ولم تعد القوى المنتجة الموجودة تحت تصرف المجتمع تساعد على نمو علاقات الملكية البرجوازية وتقدمها ، بل بالعكس اصبحت هذه القوى عظيمة جداً بالنسبة لهذه العلاقات البرجوازية التي اضحت عائقاً في سبيل تقدمها وتوسعها . وكلما شرعت القوى المنتجة تتغلب على هذا العائق رمت المجتمع البرجوازي بأسره في الاضطراب والاختلال وهددت وجود الملكية البرجوازية بالانهيار . لقد اصبحت العلاقات البرجوازية اضيق من ان تستوعب الثروات الناشئة في قلبها فكيف تتغلب البرجوازية على هذه الازمات ؟ تتغلب بالتدمير القسري لمقدار من القوى المنتجة من جهة ، وبالاستيلاء على اسواق جديدة وزيادة استثمار الاسواق القديمة من جهة اخرى . بماذا اذن ؟ بتحضير ازمات اعم واهول ، وتقليل الوسائل التي يمكن تلافي هذه الازمات بها

فالاسلحة التي استخدمتها البرجوازية للقضاء على الاقطاعية ترتد اليوم الى صدر البرجوازية نفسها .

ولكن البرجوازية لم تصنع فقط الاسلحة التي سوف تقتلها ، بل اخرجت ايضاً الرجال الذين سيستعملون هذه الاسلحة : وهم العمال العصريون ، او البروليتاريون .

تبعـــاً لتطور البرجوازية ، اي لتطور الراسمال ، تتطور البروليتاريا ، طبقة العمال العصريين الذين لا يعيشون الا اذا وجدوا عملاً ، ولا يجدونه الا اذا كان عملهم هذا ينمي الراسمال . وهؤلاء العمال المجبرون على بيع انفسهم بالمفرق هم بضاعة ، هم مادة تجارية كغيرها ، يعانون كل تقلبـات المزاحمة وكل تموجات السوق .

ونتيجة لاتساع استعمال الآلات ولتقسيم العمل ، فقد عمل البروليتاريين كل صبغة شخصية ، واضاع بذلك كل جاذب ، واصبح العامل عبارة عن ملحق بسيط للآلة لا يطلب منه الا القيام بعملية بسيطة رتيبة سهلة التلقين . وبذلك اصبح ما يكلفه العامل اليوم هو تقريبا ما تكلفه وسائل المعيشة اللازمة للاحتفاظ بحياته وتخليد نوعه الا ان ثمن العمل (١٣) كثمن كل بضاعة يساوي تكاليف انتاجه اذن كلما اصبح العمل باعثا على الاشمئزاز ، هبطت الاجور . وفوق ذلك ينمو ، مع استخدام الآلة وتقسيم العمل ، مجموع الجهد المصروف في العمل ، اما بازدياد ساعات العمل ، واما بزيادة الجهد المطلوب في مدة معينة من الزمن ، او بتعاظم سرعة حركة الآلات ، الخ ..

ان الصناعة الحديثة حولت ورشة المعلم الحرفي البطريركي الصغيرة الى مصنع كبير للصناعي الرأسمالي ، واخذت جماهير العمال المتكدسين في هذا المصنع يخضعون لتنظيم اشبه بالتنظيم العسكري . فهم جنود الصناعة البسيطون الخاضعون لسلسلة كاملة من كبار الضباط وصغارهم كانهم في جيش عسكري . وهم ليسوا عبيد الطبقة البرجوازية والدولة البرجوازية فحسب ، بل هم في كل يوم وكل ساعة عبيد للآلة وللمناظر وللبرجوازي ، صاحب المعمل نفسه بوجه خاص . وكلما تبين بصراحة ان الربح هوالهدف الوحيد لكل هذا الاستبداد ، ازداد هذا الاستبداد بشاعة وقبحا واثارة للسخط والحفيظة

وكلما قل تطلب العمل اليدوي للمهارة والقوة ، اي كلما ترقت الصناعة الحديثة ، استعيض عن عمل الرجل بعمل النساء والاولاد . ولا تبقى للفروق في الجنس او السن اهمية اجتماعية بالنسبة للطبقة العاملة ، فليس ثمة سوى ادوات للعمل تتغير كلفتها حسب العمر والجنس .

ومتى انتهى العامل من مقاساة استثمار صاحب المعمل ، وحسبت له اجرته ، اصبح فريسة لعناصر اخرى من البرجوازية : مالك البيت والبائع بالمفرق والمرابي ، الخ

اما صغار الصناعيين والتجار واصحاب الايرادات والحرفيون والفلاحون ، اي الدرجات السفلى من الطبقة المتوسطة ، فيتدهورون الى صفوف البروليتاريا ، وذلك لان رساميلهم الضعيفة لا تسمح لهم باستعمال اساليب الصناعة الكبرى ، فيندحرون ويهلكون في مزاحمتهم لكبار الرأسماليين ، ولان مهارتهم الفنية تفقد قيمتها واهميتها تجاه اساليب الانتاج الجديدة ، وعلى هذه الصورة تتجند البروليتاريا من كل طبقات السكان .

وتمر البروليتاريا في تطورها بمراحل مختلفة ، ويبدأ نضالها ضد البرجوازية منذ نشأتها

يقوم بالنضال ، بادئ الامر ، عمال فرادى منعزلون ، ثم يتكاثف عمال معمل واحد ، ثم يضم النضال كل عمال الفرع الصناعي الواحد في محلة واحدة ضد البرجوازي الذي يستثمرهم بصورة مباشرة . ولا يكتفي العمال بتوجيه ضرباتهم الى علاقات الانتاج البرجوازية ، بل يوجهونها ايضا الى ادوات الانتاج نفسها ، فيتلفون البضائع الاجنبية التي تزاحمهم ، ويحطمون الآلات ويحرقون المصانع ويسعون الى استعادة الوضع المضاع الذي كان يتمتع به العامل في القرون الوسطى باستعمال القوة .

وفي هذه المرحلة يكون العمال عبارة عن جماهير مبعثرة في البلاد تفتتها المزاحمة . واذا اتفق ان ضم العمال صفوفهم في جموع متراصة ، فلا يكون ذلك في هذا الدور نتيجة لوحدتهم الخاصة بهم ، بل نتيجة لوحدة البرجوازية التي ينبغي لها ، لكي تبلغ مراميها السياسية ، ان تحرك البروليتاريا باسرها ،

وهي ما تزال تملك القدرة على ذلك . وفي هذه المرحلة لا يحارب البروليتاريون اعداءهم بل اعداء اعدائهم ، اي بقايا الحكم الملكي المطلق وكبار اصحاب الاراضي والبرجوازيين غير الصناعيين وصغار البرجوازيين وهكذا تكون الحركة التاريخية كلها متمركزة في ايدي البرجوازية ، وكل انتصار في هذه الظروف ، يكون انتصاراً للبرجوازية

الا ان الصناعة ، عندما تتقدم وتنمو ، لا تضخم عدد البروليتاريين فقط ، بل تمركزهم ايضاً وتضمهم في جماهير اوسع واعظم ، فتنمو قدرتهم ويدركون مدى هذه القوة وتتساوى يوماً فيوماً مصالح البروليتاريين وظروف معيشتهم ، تبعاً لما تقوم به الآلة من محو كل فرق في العمل ومن انزال الاجرة في كل مكان تقريباً الى مستوى متماثل في انخفاضه . ونظراً لنمو التزاحم فيما بين البرجوازيين ، وما ينتج عن ذلك من الازمات التجارية ، تصبح اجور العمال يوماً بعد يوم اكثر تقلباً واقل استقراراً ؛ ويؤدي استمرار الاتقان في صنع الآلات بسرعة متزايدة على الدوام الى جعل حالة العمال اكثر فاكثر عديمة الاستقرار ، غير مضمونة ؛ وتصطبغ المصادمات الفردية بين العامل والبرجوازي ، شيئاً فشيئاً ، بصبغة المصادمات بين طبقتين . ويبدأ العمال في تاليف الجمعيات ضد البرجوازيين من اجل الدفاع عن اجورهم ويتقدمون في هذا السبيل ويؤلفون جمعيات دائمة لكي يؤمنوا وسائل العيش لانفسهم في حال وقوع اصطدامات ؛ وهنا وهناك ينفجر النضال بشكل انتفاضة

وقد ينتصر العمال احياناً ، ولكن انتصارهم يكون قصير الامد . والنتيجة الحقيقية لنضالهم هي هذا التضامن المتعاظم بين جميع الشغيلة ، لا ذلك النجاح المباشر الوقتي . والذي يسهل

تقدم هذا التضامن واشتداده هو نمو وسائل المواصلات التي تخلقها الصناعة الكبرى والتي تسمح للعمال ، في مختلف الجهات والمناطق ، باتصال بعضهم ببعض ويكفي هذا الاتصال بين العمال ، لتحويل النضالات المحلية المتعددة ذات الصبغة المتماثلة في كل مكان ، الى نضال طبقي واحد يشمل القطر باسره غير ان كل نضال طبقي هو نضال سياسي . والاتحاد الذي كان سكان المدن في القرون الوسطى يقضون قروناً لتحقيقه نظراً لطرقهم الوعرة الابتدائية ، تحققه البروليتاريا الحديثة خلال بضع سنين فقط بفضل السكك الحديدية

الا ان انتظام البروليتاريا في طبقة ، وبالتالي — في حزب سياسي ، يحطمه بصورة مستمرة تزاحم العمال فيما بينهم ولكن هذا الانتظام لا يختفي حتى يعود فيولد من جديد وهو دائما اشد قوة واكثر صلابة واقوى باساً ، ويستفيد من انقسامات البرجوازيين فيما بينهم ، فيجبرهم على جعل بعض مصالح الطبقة العاملة مشروعة معترفاً بها قانونياً ، مثل قانون جعل مدة العمل اليومي عشر ساعات في انجلترا .

ان المصادمات التي تقع في المجتمع القديم تساعد بصورة عامة ، وبشتى الصور والاشكال ، على تطور البروليتاريا وتقدمها فان البرجوازية تعيش في حالة حرب مستمرة ، في بادئ الامر ، ضد الارستقراطية ، ثم ضد تلك الجماعات من البرجوازية نفسها التي تتناقض مصالحها مع رقي الصناعة ، وبصورة دائمة ضد برجوازية الاقطار الاجنبية جميعا وترى البرجوازية نفسها مضطرة ، في كل ميادين النضال هذه ، الى الالتجاء للبروليتاريا وطلب معونتها ، فتجرها بذلك الى مضمار الحركة السياسية وهكذا تقدم البرجوازية بيديها الى البروليتاريين عناصر ثقافتها ، اي انها تسلمهم السلاح الذي سيحاربونها به .

اضف الى كل ذلك ما رأيناه من ان جماعات كاملة من الطبقة الحاكمة تتدهور ، بنتيجة تطور الصناعة وتقدمها ، الى طبقة البروليتاريا ، او تكون على الاقل مهددة في ظروف معيشتها وشروط حياتها فهذه الجماعات تحمل كذلك الى البروليتاريا عدداً عديداً من عناصر الثقافة .

واخيراً ، عندما يقترب نضال الطبقات من الساعة الحاسمة الفاصلة ، يتخذ انحلال الطبقة الحاكمة والمجتمع القديم باسره طابعاً يبلغ من حدته وعنفه ان جزءاً صغيراً من هذه الطبقة الحاكمة نفسها ينفصل عنها وينضم الى الطبقة الثورية ، الى الطبقة التي تحمل في قلبها المستقبل . وكما انتقل فيما مضى قسم من النبلاء الى جانب البرجوازية ، كذلك في ايامنا هذه ينتقل قسم من البرجوازية الى جانب البروليتاريا ، وخصوصاً القسم المؤلف من البرجوازيين المفكرين الذين تمكنوا من الاحاطة بمجموع الحركة التاريخية وفهمها بصورة نظرية

وليس بين جميع الطبقات التي تقف الآن امام البرجوازية وجهاً لوجه الا طبقة واحدة ثورية حقاً ، هي البروليتاريا . فان جميع الطبقات الاخرى تنحط وتهلك مع نمو الصناعة الكبرى ، اما البروليتاريا فهي ، على العكس من ذلك ، اخص منتجات هذه الصناعة .

ان الفئات المتوسطة ، من صغار الصناعيين والباعة بالمفرق والحرفيين والفلاحين ، تحارب البرجوازية من اجل الحفاظ على وجودها بوصفها فئات متوسطة فهي ليست اذن ثوريه ، بل محافظة ، واكثر من محافظة ايضا ، انها رجعية ، فهي تطلب ان يرجع التاريخ القهقرى ويسير دولاب التطور الى الوراء . واذا كنا نراها تقوم باعمال ثورية ، فما ذلك الا لخوفها من ان

تتدهور الى صفوف البروليتاريا ، وهي اذ ذاك تدافع عن مصالحها المقبلة ، لا عن مصالحها الحالية ، وهي تتخلى عن وجهة نظرها الخاصة لتتخذ لنفسها وجهة نظر البروليتاريا .

اما رعاع المدن ، هذه الحشرات الجامدة ، حثالة ادنى جماعات المجتمع القديم ، فقد تجرهم ثورة البروليتاريا الى الحركة ، ولكن ظروف معيشتهم واوضاع حياتهم تجعلهم اكثر استعداداً لبيع انفسهم الى المكائد الرجعية

ان ظروف معيشة المجتمع القديم قد اضمحلت ولم يبق لها اثر في ظروف معيشة البروليتاريا فالبروليتاري محروم من الملكية ، وليست هناك اية صفة مشتركة بين علاقاته العائلية وعلاقات العائلة البرجوازية . والعمل الصناعي الحديث الذي يضم في طياته استعباد العامل من قبل الرأسمال ، قد جرد العامل ، سواء في انجلترا او فرنسا او اميركا او المانيا من كل صبغة وطنية . وما القوانين والقواعد الاخلاقية والاديان بالنسبة اليه الا اوهام برجوازية تستتر خلفها مصالح برجوازية

ان كل الطبقات التي كانت تستولي على السلطة فيما مضى ، كانت تحاول تثبيت اوضاعها المكتسبة باخضاع المجتمع باسره لاسلوب التملك الخاص بها . ولا تستطيع البروليتاريا الاستيلاء على القوى المنتجة الاجتماعية الا بهدم اسلوب التملك الخاص بها حاليا ، وبالتالي بهدم كل اسلوب للتملك مرعي الاجراء الى يومنا هذا ولا تملك البروليتاريا شيئاً خاصا بها حتى تصونه وتحميه ، فعليها اذن ان تهدم كل ما كان يحمي ويضمن الملكية الخاصة .

وكانت الحركات الى يومنا هذا كلها حركات قامت بها اقليات او جرت في مصلحة الاقليات . اما حركة البروليتاريا فهي حركة

قائمة بذاتها للاكثرية الساحقة في سبيل مصلحة الاكثرية الساحقة . والبروليتاريا ، التي هي طبقة سفلى في المجتمع الحالي ، لا يمكنها ان تهب وتقوم عودها الا اذا نسفت كل الطبقات المتراكب بعضها فوق بعض والتي تؤلف المجتمع الرسمي .

وبالرغم من ان نضال البروليتاريا ضد البرجوازية ليس في اساسه نضالاً وطنياً ، فهو مع ذلك يتخذ هذا الشكل في بادئ الامر . اذ لا حاجة للقول ان على البروليتاريا في كل قطر من الاقطار ان تقضي قبل كل شيء على برجوازيتها الخاصة

اننا ، اذ وصفنا مراحل تطور البروليتاريا ، بخطوطها الكبرى ، قد اوردنا في الوقت نفسه تاريخ الحرب الاهلية ، المستترة الى حد ما والتي لا تنفك تاكل المجتمع وتنخره حتى الساعة التي تنفجر فيها هذه الحرب بشكل ثورة علنية ، وتؤسس البروليتاريا سيطرتها بعد القضاء على البرجوازية بالشدة والعنف .

ان كل المجتمعات السالفة قامت ، كما رأينا ، على التناحر بين الطبقات المضطهِدة والمضطهَدة ولكن لاجل اضطهاد طبقة ما ينبغي على الاقل ان يكون في الاستطاعة تامين شروط معيشة لها تمكنها من الحياة تحت وطأة الاستعباد والاضطهاد . فقد كان القن في عهد القنانة يتوصل لان يصبح عضواً في احدى الكومونات ، وكذلك البرجوازي الصغير (Kleinbürger) حتى تحت اشد انواع الاستبداد الاقطاعي ، كان يتوصل الى مرتبة البرجوازي اما العامل في عصرنا فهو على عكس ذلك تماما ، فعوضاً عن ان يرتفع ويرقى مع رقي الصناعة ، لا ينفك يهوى في انحطاط ، الى ان ينزل الى مستوى هو ادنى واحط من شروط حياة طبقته نفسها . ويسقط الشغيل في مهاوي الفاقة ، ويزداد الفقر والاملاق بسرعة تفوق سرعة ازدياد السكان ونمو الثروة .

فمن البين اذن ان البرجوازية لا يبقى بوسعها ان تقوم بدورها كطبقة حاكمة وان تفرض على المجتمع شروط حياة طبقتها واوضاع حياتها كقانون اعلى انها لم تعد تستطيع ان تحكم ، اذ لم يعد في امكانها ان تؤمن لعبدها حتى معيشة تتلاءم مع عبوديته ، وهي مجبرة على ان تدعه ينحط الى درجة يصبح معها من واجبها هي ان تطعمه بدلاً من ان تطعم نفسها بواسطته . فلم يعد من الممكن ان يحيا المجتمع تحت سيادتها وسيطرتها ، اي بعبارة اخرى اصبح وجود البرجوازية منذ الآن فصاعدا غير متلائم مع وجود المجتمع .

ان الشرط الاساسي للوجود والسيادة بالنسبة للطبقة البرجوازية هو تكديس الثروة في ايدي بعض الافراد وتكوين الرأسمال وانماؤه . وشرط وجود الرأسمال هو العمل الماجور والعمل الماجور يرتكز ، بصورة مطلقة ، على تزاحم العمال فيما بينهم ورقي الصناعة الذي ليست البرجوازية الا خادما منفعلاً له ومقسوراً على خدمته يستعيض عن انعزال العمال الناتج عن تزاحمهم ، باتحاد ثوري بواسطة الجمعيات . وهكذا ينتزع تقدم الصناعة الكبرى من تحت اقدام البرجوازية نفس الاسس التي شادت عليها نظام انتاجها وتملكها ان البرجوازية تنتج قبل كل شيء حفاري قبرها ، فسقوطها وانتصار البروليتاريا كلاهما امر محتوم لا مناص منه .

٢

البروليتاريون والشيوعيون

ما هو موقف الشيوعيين بالنسبة الى مجموع البروليتاريا ؟

ان الشيوعيين لا يؤلفون حزبا خاصا معارضا لاحزاب العمال الاخرى .

وليست لهم مصالح منفصلة عن مصالح البروليتاريا بمجموعها .

وهم لا يدعون الى مبادئ خاصة يريدون تكييف الحركة البروليتارية في قالبها

ان الشيوعيين لا يتميزون عن بقية الاحزاب البروليتارية الا في نقطتين هما :

١ – في النضالات التي يقوم بها البروليتاريون من مختلف الامم ، يضع الشيوعيون في المقدمة ويبرزون المصالح المستقلة عن الجنسية والعامة الشاملة لمجموع البروليتاريا

٢ – في مختلف مراحل التطور التي يمر بها النضال بين البروليتاريين والبرجوازيين يمثل الشيوعيون دائما ، المصالح العامة للحركة بكاملها

فالشيوعيون هم اذن ، من الناحية العملية ، احزم فريق من احزاب العمال في جميع البلدان واشدها عزيمة ، الفريق الذي يدفع الى الامام كل الفرق الاخرى . وهم من الوجهة النظرية يمتازون عن بقية البروليتاريين بادراك واضح لظروف حركة البروليتاريا وسيرها ونتائجها العامة .

اما هدف الشيوعيين المباشر فهو الهدف نفسه الذي ترمي اليه جميع الاحزاب البروليتارية ، اي : تنظيم البروليتاريين في

طبقة وهدم سيادة البرجوازية واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية .

ومفهومات الشيوعيين النظرية لا ترتكز مطلقاً على افكار او مبادئ اكتشفها او اخترعها مصلح من مصلحي العالم

فما هي سوى التعبير الاجمالي عن الظروف الواقعية لنضال طبقي موجود ولحركة تاريخية تتطور من ذاتها امام اعيننا وليس هدم علاقات الملكية القائمة هو الطابع المميز للشيوعية

فقد كابدت علاقات الملكيـــة تغييرات متتابعة وتقلبـــات تاريخية مستمرة .

فالثورة الفرنسية (١٤) مثلا قضت على الملكية الاقطاعية لمصلحة الملكية البرجوازية

فليس الذي يميز الشيوعية هو محو الملكية بصورة عامة ، بل هو محو الملكية البرجوازية

غير ان الملكية الخاصة في الوقت الحاضر ، اي الملكيـــة البرجوازية ، هي آخر واكمل تعبير عن اسلوب الانتاج والتملك ، المبني على تناقضات الطبقات واستثمار بعض الناس لبعضهـــم الآخر .

وعلى هذا ، فباستطاعة الشيوعيين ان يلخصوا نظريتهم بهذا الصدد في هذه الصيغة الوحيدة وهي القضاء على الملكية الخاصة .

ويأخذون علينا ، نحن الشيوعيين ، اننا نريد محو الملكية المكتسبة شخصيا بالعمل ، هذه الملكية التي يصرحون انها اساس كل حرية وكل نشاط وكل استقلال فردي .

الملكية ، ثمرة العمل والكفاءة ! هل يعنون بذلك هذا الشكل من الملكيـــة ، السابق للملكية البرجوازية ، اي ملكيـــة

البرجوازي الصغير والفلاح الصغير ؟ ان كانت هذه هي الملكية التي يعنونها ، فليس لنا ، نحن الشيوعيين ، ان نمحوها ونزيلها ، لان رقي الصناعة قد محاها او يمحوها يوماً بعد يوم .

ام تراهم يعنون الملكية الخاصة البرجوازية الحالية ؟

ولكن هل يخلق العمل الماجور ملكية للبروليتاري ؟ كلا ! بل هو يخلق الرأسمال ، اي الملكية التي تستثمر العمل الماجور ، والتي لا يمكن ان تنمو الا بشرط ان تنتج ايضاً وايضاً عملاً ماجوراً لتستثمره من جديد . فالملكية في شكلها الحالي تتحرك بين هذين الطرفين المتناقضين الرأسمال والعمل الماجور . فلنبحث كلا من طرفي هذا التناقض

ان كون المرء رأسمالياً يعني انه لا يشغل مركزاً شخصياً فحسب ، بل كذلك مركزاً اجتماعياً في الانتاج الرأسمال هو نتاج جماعي ، فهو لا يمكن ان يدار ويشغل الا بجهود متضافرة يبذلها كثير من الافراد ، بل هو في آخر تحليل لا يدار ويشغل الا بالجهود المشتركة لجميع اعضاء المجتمع

فليس الرأسمال قوة شخصية اذن ، بل هو قوة اجتماعية .

وعليه ، اذا تحول الرأسمال الى ملك مشترك يخص جميع اعضاء المجتمع ، فلا يكون معنى ذلك ان ثمة ملكية شخصية قد تحولت الى ملكية اجتماعية ، بل كل ما هنالك ان الصفة الاجتماعية للملكية تكون قد تغيرت ، اي تفقد الملكية صفتها الطبقية .

ولننتقل الآن الى العمل الماجور .

ان الثمن المتوسط الذي يشترى به العمل الماجور ، هو الحد الادنى للاجرة ، اي مجموع وسائل المعيشة اللازمة للعامل لكي يعيش كعامل وينتج من ذلك ان ما يستملكه العامل الماجور بجهده وكده لا يساوي الا ما يلزمه بالضرورة للاحتفاظ

بوجوده الهزيل وللابقاء على نوعه فنحن لا نريد ابدا ولا بشكل من الاشكال ، محو هذا التملك الشخصي لمنتجات العمل ، هذا التملك الضروري لحفظ الحياة البشرية وتكثيرها ، فان هذا التملك لا يترك اقل فائض يتسلط المرء بواسطته على عمل غيره . اما الذي نريده فهو محو اسلوب التملك الكئيب المظلم الذي يجعل العامل لا يحيا الا لاجل انماء الرأسمال ، ولا يحيا الا بمقدار ما تتطلبه مصالح الطبقة الحاكمة فقط

في المجتمع البرجوازي ليس العمل الحي الا وسيلة لانماء العمل المتراكم . اما في المجتمع الشيوعي فليس العمل المتراكم الا وسيلة لتفريج حياة الشغيلة واغنائها وترفيهها

وهكذا ، ففي المجتمع البرجوازي الماضي يسيطر على الحاضر . وفي المجتمع الشيوعي : الحاضر يسيطر على الماضي في المجتمع البرجوازي الرأسمال مستقل وشخصي في حين ان الفرد الذي يعمل تابع لغيره ومحروم من شخصيته .

فهدم هذه الحالة تعيبه وتشجبه البرجوازية وتزعم انه هدم للشخصية والحرية ! وهي على حق فيما تزعم ، لان هذا الهدم هو في الحقيقة هدم للشخصيـــة البرجوازية وللاستقلال البرجوازي وللحرية البرجوازية .

انهم يعنون بالحرية ، في الظروف الحالية للانتاج البرجوازي ، حرية التجارة ، حرية الشراء والبيع .

ولكن اذا تلاشت التجارة ، تلاشت التجارة الحرة ايضا غير ان جميع الكلمات الضخمة التي ترددها برجوازيتنا عن حرية التجارة وكل تصلفها وانتفاخها وغطرستها حول الحريات ، لا معنى لها الا اذا قوبلت بالتجارة المقيدة والبرجوازي المستعبد في القرون الوسطى ، ولا يبقى لها اقل معنى او دلالة عندما تدور

المسالة حول ما ترمي اليه الشيوعية من ازالة التجارة وعلاقات الانتاج البرجوازية والبرجوازية نفسها .

يهولكم ويروعكم اننا نريد محو الملكية الخاصة . ولكن في مجتمعكم هذا ذاته تسعة اعشار اعضائه محرومون من اية ملكية خاصة ، واذا كانت هذه الملكية موجودة فلأن هؤلاء الاعشار التسعة محرومة منها . فانتم تاخذون علينا اذن اننا نريد محو شكل للملكية ، شرط وجوده ان تكون الاكثرية الساحقة محرومة من كل ملكية .

اي بكلمة ، تتهموننا باننا نريد محو ملكيتكم انتم . وحقا هذا الذي نريد

وما ان يغدو من المستحيل ان يتحول العمل الى راسمال ونقد وريع عقاري ، اي الى قوة اجتماعية قابلة للاحتكار ، او بعبارة اخرى ، ما ان يصبح من المستحيل ان تتحول الملكية الفردية الى ملكية برجوازية ، حتى تزأرون وتصيحون بأن الفرد قد امحى وابيد .

فانتم تعترفون اذن انكم ، عندما تتكلمون عن الفرد ، لا تعنون بكلامكم الا البرجوازي ، اي المالك البرجوازي وبالفعل ان هذا الفرد يجب ان يباد ويمحى نهائيا

ان الشيوعية لا تسلب احدا القدرة على تملك منتجات اجتماعية ، انها لا تنزع سوى القدرة على استعباد عمل الغير بواسطة هذا التملك

ويعترضون علينا بقولهم ان محو الملكية الخاصة يؤدى الى توقف كل نشاط وانتشار كسل يعمّ العالم باسره

ولو كان ذلك كذلك ، لكان المجتمع البرجوازي قد سقط منذ امد طويل في بؤرة الكسل والخمول ، ما دام الذين يشتغلون

في هذا المجتمع لا يمتلكون ، والذين يمتلكون لا يشتغلون . وهكذا يؤول كل اعتراضهم الى تكرار ممل للحقيقة التالية وهي : حيث لا يبقي الراسمال ، لا يبقى عمل ماجور .

وجميع التهـــم الموجهة الى الاسلوب الشيوعي في انتاج واستملاك المنتجات المادية وجهت الى انتاج واستملاك منتجات الفكر ايضا ، فكما ان زوال الملكية الطبقية يعادل بالنسبـــة للبرجوازي زوال كل انتاج ، فكذلك زوال الثقافة الطبقية يعني بالنسبة اليه زوال كل ثقافة

غير ان هذه الثقافة التي يبكي البرجوازي وينتحب على فقدها ، ما هي عند الاكثرية الساحقة الا تدريبا على عمل مثل الآلة .

ولكن لا فائدة من مماحكتكم لنا ، اذا كان قصدكم من ذلك ان تطبقوا على محو الملكية البرجوازية معيار مفهوماتكم البرجوازية عن الحرية والثقافة والحق ، الخ ان افكاركم نفسها ناتجة عن علاقات الانتاج البرجوازية وعلاقات الملكية البرجوازية ، كما ان الحق لديكم ليس الا ارادة طبقتكم مخطوطة بشكل قانون هذه الارادة التي تحدد فحواها ومبناها ظروف الحياة المادية لطبقتكم .

ان مفهوماتكم المغرضة تدفعكم الى جعل العلاقات الاجتماعية المتولدة عن اسلوبكم في الانتاج وعلاقات الملكية ـ هذه العلاقات التاريخية التي يمحوهـــا سير الانتـــاج نفسه ـ قوانين طبيعية وعقلية ، خالدة ابدية . ولستم منفردين بهذه المفهومات ، بل سبقتكم اليها كل الطبقات الحاكمة التي زالت اليوم ولكن ما تقبلونه وتقرونه بالنسبة للملكية القديمة ، ما تقبلونه وتقرونه فيما يتعلق بالملكية الاقطاعية ، لم يعد في امكانكم ان تقبلوه بالنسبة للملكية البرجوازية .

هدم العائلة ! حتى اشد الراديكاليين تطرفاً تسخطهم نية الشيوعيين هذه ، الفاضحة المرذولة .

ولكن ، على اية قاعدة ترتكز العائلة البرجوازية في الوقت الحاضر ؟ انها ترتكز على الراسمال والربح الفردي . وهي ، بكامل كيانها وتمام بنيانها ، ليست موجودة الا عند البرجوازية فقط ولكن تتمتها هي الالغاء القسري للعائلة بالنسبة للبروليتاري ، ثم البغاء العلني .

ان العائلة البرجوازية تضمحل طبعا باضمحلال تتمتها هذه . وكلتاهمـــا ، العائلة البرجوازية وتتمتهـــا ، تتلاشيان بتلاشي الراسمال .

أتاخذون علينا اننا نريد القضاء على استثمار الابناء من قبل اهلهم وذويهم ؟ ان كان ذلك فنحن نعترف بهذه الجريمة .

وتزعمون اننا نحطم اقدس الاواصر والصلات بابدالنا التربية في العائلة بالتربية في المجتمع

ولكن تربيتكم انتم ، أليس المجتمع ايضا هو الذي يحددها ؟ أليست تحددها العلاقات الاجتماعية التي تربون فيها اولادكم ؟ ألا يحددها تدخل المجتمع بصورة مباشرة او غير مباشرة بواسطة المدرسة ، الخ ؟ ان تدخل المجتمع في التربية ليس من ابتكار الشيوعيين . فكل ما يفعله الشيوعيون انهم يغيرون طبيعة التربية ويحورون صفتها وشكلها وينتزعونها من تاثير الطبقة الحاكمة ونفوذها

ان تشدق البرجوازيين الفارغ عن العائلة والتربية وعن الاواصر والصلات العذبة التي تربط الولد باهله ، اصبحت تقزّ منه النفس اكثر فاكثر ، اذ ان الصناعة الكبرى تهدم كل صلة عائلية عند البروليتاريا وتحول الاولاد الى مواد تجارية بسيطة وادوات عمل صرف .

والآن اسمعوا البرجوازية تصيح من كل جانب : «انكم ايها الشيوعيون تريدون اشاعة المرأة» .

ليست امرأة البرجوازي عنده سوى اداة انتاج بسيطة ، وهو يسمع ان ادوات الانتاج يجب ان تكون مشتركة ، فيستنتج من ذلك بالطبع ان النساء انفسهن سوف يسري عليهن ذلك .

ولا يدخل في وهم البرجوازي ان المسألة هي على العكس تماما ، واننا نريد اعطاء المرأة دوراً غير هذا الدور الذي تقوم به الآن كاداة انتاج بسيطة .

ولشد ما يضحكنا هذا الذعر فوق الاخلاقي الذي توحيه الى البرجوازيين اشاعة النساء الرسمية التي يزعمون ان الشيوعيين يدعون اليها . ليست بالشيوعيين حاجة الى ادخال اشاعة النساء ، فهي تقريبا كانت دائما موجودة .

ولا يكتفي البرجوازيون بان تكون تحت تصرفهم نساء البروليتاريين وبناتهم – هذا عدا البغاء الرسمي – بل يجدون لذة خاصة في اغواء بعضهم لنساء بعض

ليس الزواج البرجوازي في الحقيقة والواقع سوى اشاعة النساء المتزوجات فقصارى ما يمكن ان يتهم به الشيوعيون اذن هو انهم يريدون ، كما يزعم ، الاستعاضة عن اشاعة النساء المستترة بالرياء والمغطاة بالمداجاة ، باشاعة صريحة رسميه ولكن من البديهي الواضح ان محو علاقات الانتاج الحالية يؤدي ، بطبيعة الحال ، الى محو اشاعة النساء التي تنتج منه ، اي ان البغاء ، سواء أكان رسمياً ام غير رسمي ، يضمحل ويزول

ويتهمون الشيوعيين ، عدا ذلك ، بالرغبة في الغاء الوطن والقومية .

ليس للعمال وطن ، فليس في الاستطاعة اذن سلبهم ما لا يملكون . وبما ان على البروليتاريا ان تستولي اولا على السلطة السياسية ، وان تشيد نفسها بحيث تغدو الطبقة القائدة للامة ، وان تصبح هي الامة ، فهي لا تزال بعد اذن وطنية ، ولكن ليس بالمعنى البرجوازي لهذه الكلمة .

وها هي الفواصل الوطنية والتناقضات بين الشعوب تزول يوما بعد يوم تبعا لتطور البرجوازيـــة ، وحرية التجارة ، والسوق العالمية ، وتشابه الانتاج الصناعي وشروط المعيشة الناجمة عن ذلك .

وعندما تستولي البروليتاريا على الحكم تعمل لازالتها اكثر ايضا فان نضال البروليتاريا نضالا مشتركا يشمل الاقطـــار المتمدنة على الاقل ، هو احد الشروط الاولية لتحررها

ازيلوا استثمار الانسان للانسان ، تزيلوا استثمار امة لاخرى .

وعندما يزول تناحر الطبقات في قلب كل امة يزول في الوقت نفسه العداء والحقد بين الامم .

اما التهم الاخرى الموجهة الى الشيوعية من وجهات نظر دينية وفلسفية ، وبوجه عام ، من وجهات نظر فكرية ، فهي لا تستحق بحثا عميقا مستفيضا .

اذ هل يحتاج المرء الى تعمق كبير ليدرك ان نظرات الناس ومفهوماتهم وتصوراتهم الفكرية ، او بالاختصار ادراكهم ، يتغير مع كل تغيير يطرأ على ظروف حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية وشروط معيشتهم الاجتماعية ؟

وهلا يبرهن تاريخ الافكار على ان الانتاج الفكري يتبدل ويتحور مع تبدل الانتاج المادي وتحوره ؟ فالافكار والآراء السائدة في عهد من العهود لم تكن سوى افكار الطبقة السائدة وآرائها .

وحينما يتحدثون عن افكار تؤثر تأثيراً ثورياً في مجتمع باسره ، انما يعبرون في الحقيقة عن هذا الحادث وهو انه تشكلت في قلب المجتمع القديم عناصر مجتمع جديد ، وان انحلال الافكار القديمة يسير جنباً الى جنب مع انحلال ظروف المعيشة القديمة .

فحينما كان العالم القديم على اعتاب السقوط والزوال ، انتصر الدين المسيحي على الاديان الاخرى القديمة ، وحينما تركت الافكار المسيحية محلها في القرن الثامن عشر لافكار الرقي الجديدة ، كان المجتمع الاقطاعي يقوم اذ ذاك بمعركته الاخيرة ضد البرجوازية التي كانت حينذاك ثورية . ولم يكن ظهور الافكار القائلة بحرية المعتقد والحرية الدينية الا ايذانا بسيطرة المزاحمة الحرة في ميدان العقائد

وقد يقولون : «نعم ان الافكار الدينية والاخلاقية والفلسفية والسياسية والحقوقية وما اليها قد طرا عليها التعديل خلال التطور التاريخي ، ولكن الدين والاخلاق والفلسفة والسياسة والحقوق كانت مع ذلك تحافظ دائما على بقائها خلال هذا التحول المستمر

وهنالك فوق ذلك حقائق ابدية ، مثل الحرية والعدالة ، الخ . ، وهي واحدة مشتركة في جميع مراحل التطور الاجتماعي . اما الشيوعية فهي تلغي الحقائق الابدية ، تلغي الدين والاخلاق عوضاً عن تجديدهما ؛ فهي تناقض اذن كل التطور التاريخي السابق» .

ففيم تتلخص هذه التهمة ؟ ان تاريخ كل مجتمع حتى الآن قائم على التناحر بين الطبقات وقد اتخذ التناحر اشكالا مختلفة حسب العهود .

ولكن مهما كان الشكل الذي اتخذه هذا التناحر ، فقد كان هنالك دائما شيء مشترك بين جميع العصور السالفة ، وهو

استعمار قسم من المجتمع لقسم آخر منه . فلا غرابة اذن في ان نرى الادراك الاجتماعي في جميع العصور ، رغم كل اختلاف وكل تنوع ، يتطور ضمن اشكال مشتركة معينة ، اشكال للادراك لن تنحل تماما الا بزوال التناحر بين الطبقات زوالا تاما

ان الثورة الشيوعية تقطع من الاساس كل رابطة مع علاقات الملكية التقليدية ؛ فلا عجب اذن ان هي قطعت بحزم ايضا ، اثناء تطورها ، كل رابطة مع الافكار والآراء التقليدية

ولكن لندع الآن جانبا ما تبديه البرجوازية من الاعتراضات على الشيوعية .

ان الخطوة الاولى في ثورة العمال هي ، كما رأينا ، تحول البروليتاريا الى طبقة سائدة ، والظفر بالديموقراطية

وستستخدم البروليتاريا سيادتهـا السياسية لاجل انتزاع الرأسمال من البرجوازية شيئا فشيئا ، ومركزة جميع ادوات الانتاج في ايدي الدولة ، اي في ايدي البروليتاريـا المنظمة في طبقـة حاكمة ، وزيادة كمية القوى المنتجة وانمائها باسرع ما يمكن .

ولا يتم ذلك طبعا في بادى الامر الا بخرق حق التملك وعلاقات الانتاج البرجوازية بالشدة والعنف ، اي باتخاذ تدابير تتراءى من الوجهة الاقتصادية غير كافية ولا مأمونة البقاء ، ولكنها تتعاظم وتتجاوز نفسها بنفسها خلال الحركة وتكون ضرورية لا غنى عنها كوسيلة لقلب اسلوب الانتاج باسره

وستختلف هذه التدابير ، طبعا ، في مختلف الاقطار .

غير انه يمكن تطبيق التدابير التالية ، بصورة عامة تقريبا في اكثر البلاد تقدما ورقيا :

١ – نزع الملكية العقارية وتخصيص الريع العقاري لتغطية نفقات الدولة .

٢ ــ فرض ضرائب متصاعدة جداً
٣ ــ الغاء الوراثة
٤ ــ مصادرة املاك جميع المهاجرين والعصاة المتمردين
٥ ــ مركزة التسليف كله في ايدي الدولة بواسطة مصرف وطني رأسماله للدولة ويتمتع باحتكار تام مطلق .
٦ ــ مركزة جميع وسائل النقل في ايدي الدولة
٧ ــ تكثير المصانع التابعة للدولة وادوات الانتاج واصلاح الاراضي البور وتحسين الاراضي المزروعة حسب منهاج عام
٨ ــ جعل العمل اجبارياً للجميع على السواء وتنظيم جيوش صناعية ، وذلك لاجل الزراعة على الخصوص
٩ ــ الجمع بين العمل الزراعي والصناعي واتخاذ التدابير المؤدية تدريجياً الى محو الفرق بين المدينة والريف
١٠ ــ جعل التربية عامة ومجانية لجميع الاولاد ومنع تشغيل الاحداث في المصانع كما يجري اليوم ، والتوفيق بين التربية وبين الانتاج المادي ، الخ

وما ان تختفي الفوارق الطبقية وتزول خلال سير التطور ، ويصبح كل الانتاج متمركزاً في ايدي جمعية واسعة تشمل الامة باسرها ، حتى تفقد السلطة العامة صبغتها السياسية اذ ان السلطة السياسية بالمعنى الصحيح هي السلطة المنظمة لطبقة من اجل اضطهاد طبقة اخرى . فاذا كانت البروليتاريا ، في نضالها ضد البرجوازية ، تبني نفسها حتماً في طبقة ، واذا كانت تجعل نفسها بواسطة الثورة طبقة حاكمة ، ثم بصفتها طبقة حاكمة ، تهدم بالعنف والشدة علاقات الانتاج القديمة ، فانها بهدمها علاقات الانتاج القديمة تهدم في الوقت نفسه ظروف وجود التناقض والتناحر بين الطبقات وتهدم الطبقات بصورة عامة ، وبذلك تهدم ايضاً سيادتها ذاتها من حيث هي طبقة .

وعلى انقاض المجتمع البرجوازي القديم بطبقاته وتناقضاته الطبقية يبرز مجتمع جديد تكون حرية التطور والتقدم لكل عضو فيه شرطاً لحرية التطور والتقدم لجميع الاعضاء

٣

الأدب الاشتراكي والشيوعي

١ ـ الاشتراكية الرجعية

أ ـ الاشتراكية الاقطاعية

كتبت الارستقراطية الفرنسية والانجليزية كثيراً من الرسائل الهجائية في ذم المجتمع البرجوازي الحديث ، مدفوعة الى ذلك بحكم وضعيتها التاريخية ، اذ انها في الثورة الفرنسية في تموز (يوليو) عام ١٨٣٠ وكذلك في حركة الاصلاح الانجليزية (١٥) كانت قد غلبت على امرها مرة اخرى وتداعت تحت ضربات الوافد الجديد البغيض المكروه . فلم يعد في امكانها القيام بنضال سياسي جدي ، لم يبق لها سوى النضال الادبي ، ولكن في الميدان الادبي ايضا لم يعد يقام وزن للعبارات المبهرجة الفارغة التي كانت سوقها رائجة في عهد عودة الملكية • . فلكيما تتمكن الارستقراطية من ايجاد من يعطف عليها ، كان عليها ان تتظاهر بانها لا تهتم بمصالحها الخاصة ، وانها توجه اتهاماتها الى البرجوازية غيرة منها على مصلحة الطبقة العاملة المستثمرة فحسب ، وعلى هذه الصورة

• ليس المقصود هنا عودة الملكية في انجلترا ١٦٦٠ـ١٦٨٩ ، بل في فرنسا في ١٨١٤ـ١٨٣٠ (١٦) . (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية عام ١٨٨٨ .)

كانت تؤمن لنفسها لذة السخر بسيدها الجديد والدمدمة في اذنه بنبوءات النحس والشؤم عن مستقبل ايامه

وهكذا نشـــات الاشتراكية الاقطاعية مزيجـــا من الشكاوى والاهاجي ، من ذكريات الماضي واخطار المستقبل واذا كان انتقادها المر اللازع البارع يصيب البرجوازية احيانا في صميم قلبها ، فان عجزها المطلق عن فهم سير التاريخ الحديث كان يسبل عليها دوما ثوبا من السخافة والسخرية .

وقد لوح الارستقراطيون بجراب البروليتاريـــا الشحاذي واتخذوه علما لهم لكي يقودوا الشعب وراءهم ولكن ما ان تراكض الشعب نحوهم حتى رأى الشعارات الاقطاعية القديمة تزين مؤخرتهم ، فتولى عنهم وهو يقهقه قهقهة السخر والاستخفاف

وقد مثل هذا المشهد امـــام العالم قسم من الليجيتيميين الفرنسيين (١٧) وكذلك «انجلترا الفتاة» (١٨)

وعندما يبرهن الاقطاعيون ان اسلوب الاستثمار الاقطاعي كان غير اسلوب الاستثمار البرجوازي ، لا ينسون الا شيئا واحدا هو ان الاقطاعية كانت تستثمر ضمن شروط وظروف اخرى تلاشت اليوم ومضى زمانها . وكذلك عندما يلاحظون ان البروليتاريـــا الحديثة لم تكن موجودة في ظل حكمهم ، لا ينسون ايضا الا شيئا واحدا هو ان البرجوازية الحديثة نفسها ليست سوى الوليدة الضرورية لنظامهم الاجتماعي .

وتظهر ، من جهة اخرى ، الطبيعة الرجعية لانتقاداتهم في كون اهم ما يلومون البرجوازية عليه انها خلقت في عهدها طبقة سوف تهدم كل النظام الاجتماعي القديم .

انهم لا يجرمون البرجوازية لانها انتجت البروليتاريا ، بمقدار ما يجرمونها لان هذه البروليتاريا التي انتجتها هي ثورية .

وعليه فانهم في النضال السياسي يساهمون في جميع تدابير العنف والشدة ضد الطبقة العاملة . وتراهم كذلك في حياتهم العادية بالرغم من عباراتهم المبهرجة المنتفخة ، ينحنون لالتقاط الثمار الذهبية التي تنثرها شجرة الصناعة ، ويبيعون الشرف والحب والوفاء بالصوف وسكر الشمندر وكاس الخمرة * .

وكما كان الكاهن والاقطاعي يسيران دوما يداً بيد ، كذلك تسير الاشتراكية الكهنوتية جنباً لجنب مع الاشتراكية الاقطاعية .

وليس اسهل من ان يطلي النسك والزهد المسيحي بطلاء من الاشتراكية أفلم تدع المسيحية ايضا ضد الملكية الخاصة والزواج والدولة ؟ ألم تبشر ، عوضا عنها ، بالصحبة والاحسان والاسمـــال الرقة والتبتل وقتل الجسد والتقشف والرهبانيـــة والكنيسة ؟ ان الاشتراكية المسيحية ليست سوى الماء المقدس الذي يسكبه الكاهن على نـــار الغيظ المتاججة بين جوانـــح الارستقراطية

ب – الاشتراكية البرجوازية الصغيرة

ليست الارستقراطية الاقطاعية الطبقة الوحيدة التي هدمتها البرجوازية ولا الطبقة الوحيدة التي تنحل ظروف معيشتها وتفنى

---

* وهذا ينطبق ، بالدرجة الاولى على المانيا ، حيث الارستقراطيون الزراعيون واليونكر (١٩) يشرفون على ادارة الشؤون الاقتصادية في القسم الاكبر من اراضيهم على حسابهم الخاص بواسطة الوكلاء ، ويملكون ، علاوة على ذلك ، معامل كبيرة للسكر والخمور . اما الارستقراطيون الانجليز الذين هم اغنى منهم ، فلم تبلغ بهم الحال هذه الدرجة بعد ؛ الا انهم يعرفون هم ايضـــا كيف يعوضون عن هبوط الريع ، بتقديم اسمائهم لمؤسسي شركات مساهمة مشكوك فيها لهذا الحد او ذاك . (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية عام ١٨٨٨ .)

شيئا فشيئا في المجتمع البرجوازي الحديث كان سكان المدن وصغار الفلاحين في القرون الوسطى اسلاف البرجوازية الحديثة وفي البلاد المتأخرة صناعتها وتجارتها لا تزال هذه الطبقة تحيا حياة الضيق والشقاء الى جانب البرجوازية المزدهرة النامية

لقد تألفت في البلاد ، التي ازدهرت فيها المدنية الحديثة ، برجوازية صغيرة جديدة تتذبذب بين البروليتاريا والبرجوازية ولما كانت هذه الطبقة جزءاً مكملا للمجتمع البرجوازي فانها تتكون بدون انقطاع ، ولكن الافراد الذين يؤلفون هذه الطبقة يتدهورون على الدوام ، بنتيجة المزاحمة ، الى صفوف البروليتاريا . وفوق ذلك يشعرون ، مع سير الصناعة الكبرى الى امام ، باقتراب الساعة التي ينقرضون فيها كليا بوصفهم قسما متميزاً من المجتمع الحديث ، ليحل محلهم في التجارة والصناعة والزراعة ، النظار والمستخدمون .

وكان من الطبيعي في اقطار مثل فرنسا ، يؤلف فيها الفلاحون اكثر بكثير من نصف السكان ان يعمد بعض الكتاب الذين يناصرون البروليتاريا ضد البرجوازية ، الى انتقاد النظام البرجوازي والدفاع عن العمال من وجهة نظر خاصة بصغار البرجوازيين والفلاحين وعلى هذه الصورة تشكلت الاشتراكية البرجوازية الصغيرة . وكان سيسموندي زعيم هذا الادب لا في فرنسا فحسب ، بل في انجلترا ايضا

وقد حللت هذه الاشتراكية ، بكثير من التعمق ، التناقضات اللاصقة بعلاقات الانتاج الحديثة وكشفت القناع عن تقاريظ الاقتصاديين المملوءة رياء ونفاقا والبتت ، بشكل مفحم لا يدحض ، النتائج القتالة لادخال الآلة في الصناعة ولتقسيم العمل ، وتمركز الرساميل والملكية العقارية ، وفيض الانتاج ، والازمات ،

وانحطاط البرجوازيين الصغار والفلاحين وتدهورهم المحتوم ، وبؤس البروليتاريا ، والفوضى في الانتاج ، والتفاوت الفاحش في توزيع الثروة ، والحرب الصناعية المبيدة المهلكة بين الامم ، وانحلال الاخلاق القديمة والعلاقات العائلية القديمة والقوميات القديمة

ولو رحنا نحكم على هذه الاشتراكية حسب مضمونها الحقيقي ، لرأينا اما انها تبغي ان تعيد وسائل الانتاج والتبادل القديمة وتوطدها من جديد وتعيد معها علاقات الملكية القديمة والمجتمع القديم ، واما انها تبغي ان تحصر بالقوة وسائل الانتاج والتبادل الحديثة في نطاق علاقات الملكية القديمة ، هذا النطاق الضيق الذي حطمته ، وكان لا بد ان تحطمه حتماً هذه الوسائل الحديثة نفسها . وفي الحالتين تكون هذه الاشتراكية رجعية طوبوية في آن واحد

فكلمتها الاخيرة هي ادخال النظام الحرفي في الصناعة ، وادخال النظام البطريركي في الزراعة

وفيما بعد ، تحول هذا الاتجاه الى هراء حقير

ج – الاشتراكية الالمانية او الاشتراكية «الصحيحة»

ان الآداب الاشتراكية والشيوعية الفرنسية ، وقد نشأت تحت ضغط البرجوازية الحاكمة المسيطرة وكانت التعبير الادبي عن التمرد على هذه السيطرة ، دخلت المانيا حين كانت البرجوازية الالمانية في بدء نضالها ضد الاستبداد الاقطاعي المطلق

وقد تهافت الفلاسفة وانصاف الفلاسفة والمتادبون الالمان بشراهة ونهم على هذه الآداب ، ولكن سها عن بالهم ان استيراد

الآداب الفرنسية الى المانيا لم يرافقه في الوقت نفسه استيراد الظروف والاوضاع الاجتماعية الفرنسية اليها . فقد فقدت هذه الآداب الفرنسية كل دلالة عمليـــة مباشرة بالنسبـة للظروف الاجتماعية الالمانية واتخذت صبغة ادبية محضة . ولذا ما كانت لتبدو ، بطبيعة الحال ، الا كعبث فكري لا طائل تحته حول تحقيق الطبيعة البشرية . وهكذا لم تكن مطالب الثورة الفرنسية الاولى في نظر الفلاسفة الالمان في القرن الثامن عشر ، سوى مطالب «العقل العملي» بوجه عام ، ولم تكن مظاهر ارادة البرجوازيين الثوريين الفرنسيين تعبر في نظرهم الا عن قوانين الارادة الخالصة النقية ، الارادة كما يجب ان تكون ، الارادة التي هي حقا انسانية .

اما عمل الادباء الالمان الخاص فكان مقتصراً على التوفيق بين الافكار الفرنسية الجديدة وادراكهم الفلسفي القديم او ، على الاصح ، على استيعاب الافكار الفرنسية بجعلها مطابقة لفلسفتهم الخاصة

وقد تم استيعاب هذه الافكار كما يستوعب المرء لغة اجنبية ، اي بالترجمة .

ومعروف كيف اخذ الرهبان مخطوطات المؤلفات الكلاسيكية في العهد الوثني القديم وغطوها بخرافات واساطير سخيفة عن القديسين الكاثوليك اما الادباء الالمان فكان شانهم مع الآداب الفرنسية الجاحدة على عكس ذلك تماما . فقد دسوا خباواتهم الفلسفية تحت الاصل الفرنسي . فانهم مثلا اخذوا الانتقاد الفرنسي لنظام المال وكتبوا تحته «انتزاع الطبيعة البشرية» ، وتحت الانتقاد الفرنسي للدولة البرجوازية كتبوا — «انخلاع سلطـــان الكونية المجردة» ، وهلم جراً .

وبعد ما ابدلوا الشروح الفرنسية بهذه العبارات الفلسفية الميهرجة الفارغة ، اطلقوا على عملهم هذا مختلف الاسماء مثل

«فلسفة العمل» و«الاشتراكية الصحيحة» و«علم الاشتراكية الالماني» و«تبرير الاشتراكية فلسفيا» ، الخ ..

وعلى هذه الصورة جردوا الآداب الاشتراكيـــة والشيوعية الفرنسية تجريداً تاماً من الصفات التي كانت جوهر قوتها وسلبوها رجولتها . وبما انها اصبحت بين ايدي الالمان بعد هذا العبث والتشويه في حالة لا تعبّر معها عن نضال طبقة ضد اخرى ، فقد اخذ سادتنا الالمان يهنئون انفسهم بانهـــم ارتفعوا فوق «المستوى الفرنسي المحدود الضيق» وبانهم دافعوا لا عن حاجات حقيقية بل عن حاجة الحقيقة ، ولا عن مصالح البروليتاريا بل عن مصالح الكائن الانساني ، مصالح الانسان على العموم ، الانسان الذي لا ينتمي الى اية طبقة ولا يرتبط باي واقع ، الانسان الذي لا تجده الا بين الغيوم السابحة في سماء الاهواء الفلسفية .

الا ان هذه الاشتراكية الالمانية التي كانت تنظر بكثير من الاحتفال والجد الى تطبيقاتها غير البارعة الشبيهة بتمارين تلاميذ المدارس ، وترفع بها عقيرتها وتنادي بها في ابواقها بشعوذة مدوية صاخبة ، قد فقدت شيئاً فشيئاً السذاجة البريئة المتصفة بمباهاة ادعياء العلم والمعرفة .

فقد اصبح كفاح البرجوازية الالمانية ولا سيما البرجوازية البروسية ضد الاقطاعيين والملكية المطلقة ، او بعبارة اخرى اصبحت الحركـــة الليبيرالية ، ذات صبغة جديـــة اكثر من ذي قبل .

وبذلك سنحت للاشتراكية «الصحيحة» الفرصة المنشودة لمعارضة الحركة السياسية بالمطالب الاشتراكية ، فاسرفت في كيل اللعنات التقليدية للنزعة الليبيرالية والدولة التمثيلية والمزاحمة البرجوازية وحرية النشر البرجوازية والحقوق البرجوازية والحرية

البرجوازية والمساواة البرجوازية ، واستطاعت ان تبث الدعوة بين الجماهير بانها لا تربح شيئا بل بالعكس تخسر كل شيء من وراء هذه الحركة البرجوازية . وهكذا نسيت الاشتراكية الالمانية في الوقت المناسب للغاية ان الانتقاد الفرنسي الذي لم تكن هي ذاتها سوى صداه الحقير ، كان يفرض بمقدما وجود المجتمع البرجوازي الحديث مع ما يرتبط به من ظروف المعيشة المادية ومن دستور سياسي موافق له وما الى ذلك من الشؤون التي كان لا يزال على المانيا ان تعمل لتحقيقها والحصول عليها

اما الحكومات المطلقة في المانيا ، بحاشيتها الضخمة من القسس والكهنة والاساتذة المربين والاقطاعيين والبيروقراطيين ، فقد اصبحت هذه الاشتراكية في ايديها ، الفزاعة المنشودة التي تخيف بها البرجوازية المهددة المهاجمة

وهكذا اضافت هذه الاشتراكية رياءها التافه الحلاوة الى الرصاص والسياط التي كانت هذه الحكومات نفسها تسلطها بقساوة وشراسة على العمال الالمان المتمردين

وعدا ان هذه الاشتراكية «الصحيحة» اصبحت ، على هذه الصورة ، سلاحا ضد البرجوازية الالمانية في ايدي الحكومات ، فانها كانت ، زيادة على ذلك ، تمثل بصورة مباشرة مصلحة رجعية هي مصلحة البرجوازية الصغيرة الالمانية والبرجوازية الصغيرة هذه التي خلفها القرن السادس عشر والتي ما انفكت منذ ذلك الحين تتولد وتتولد دون انقطاع تحت اشكال مختلفة ، تؤلف الاساس الاجتماعي الحقيقي للنظام القائم في المانيا

فالمحافظة عليها معناها المحافظة على النظـــام القائم في المانيا . وواضح ان السيادة الصناعية والسياسية للبرجوازية تهدد هذه البرجوازية الصغيرة بالسقوط الاكيد بنتيجة تمركز الرساميل

من جهة ، ونمو البروليتاريا الثورية من جهة اخرى ولذلك تراءى لهذه البرجوازيـــة الصغيرة ان الاشتراكية «الصحيحة» تستطيع اصابة عصفورين بحجر واحد ، فانتشرت انتشار الوباء .

وقد صنع الاشتراكيون الالمان من شفوف نظرياتهم المهلهلة ثوبا فضفاضا مزركشا بازهار دقيقة من فصاحتهم ومبللا بانداء العواطف الرقيقة الحارة ، واسبلوه على الهيكل العظمي «لحقائقهم الابدية» ، الامر الذي ما كان الا ليزيد في رواج بضاعتهم بين جمهور كهذا

وقد ادركت الاشتراكية الالمانية من جهتها ، يوما بعد يوم ، انها قد الهمت ولوحي اليها ان تكون هي الممثل الباذخ لهذه البرجوازية الصغيرة

فنادى مناديها بان الامة الالمانية هي الامة النموذجية وان التافه ، الضيق الافق الالماني هو الانسان النموذجي والصقت بكل رذائل هذا الانسان النموذجي ونقائصه معنى دفينا ، معنى اشتراكيا عاليا ، يغير وجهها ويقلبها تماما واندفعت في هذا الطريق الى نهايته فاعلنت انها تقاوم ميل الشيوعية «الهدام الفظيع» وانها تحلق في حيادها السامي فوق كل نضال طبقي . وكل المؤلفات الاشتراكية او الشيوعية المزعومة المتداولة في المانيا ، ما عدا القليل النـادر منهـــا ، تنتمي الى هذه الآداب القذرة المثيرة للاعصاب *

---

* لقد كنست العاصفة الثورية عام ١٨٤٨ (٢٠) هذه المدرسة الخسيـــة كلها وقضت على كل ميل لدى اتباعها الى متابعة استغلال اسم الاشتراكية وكان السيد كارل غرون الممثل الرئيسي والنموذج الكلاسيكي لهذه المدرسة . (ملاحظة المجلس للطبعة الالمانية عام ١٨٩٠ .)

٢ ـ الاشتراكية المحافظة او البرجوازية

يحاول قسم من البرجوازية ايجاد علاج للامراض الاجتماعية لاجل تقوية دعائم المجتمع البرجوازي .

وينتسب الى هذا الصنف الاقتصاديـــون ورجـــال الخير والانسانيون والناس الذين يهتمون بتحسين مصير الطبقات الكادحة ، وتنظيم اعمال البر والاحسان ، وحماية الحيوانات ، وتاليف جمعيات الاعتدال والقناعة ، اي بالاختصار جميع المصلحين الذين يستوحون آراءهم الاصلاحية من فضاء غرفهم . وقد بلغ بهم الامر الى صوغ هذه الاشتراكية البرجوازية في نظم كاملة

ونذكر كمثـــال عن هذه الاشتراكية «فلسفـة البؤس» لبرودون .

ان البرجوازيين الاشتراكيين يريدون بقاء ظروف المعيشة في المجتمع الحديث ولكن على ان تخلو من النضال والاخطار التي تنشأ بالضرورة عن هذه الظروف نفسها . انهم يريدون بقاء المجتمع الحالي ، ولكن مطهراً من العناصر التي تغيره ثوريـــا وتنخره وتحله . انهم يريدون البرجوازية ولكن بدون البروليتاريا . ان البرجوازية تتصور ، بالطبع ، العالم الذي تسود فيه وتسيطر عليه كاحسن العوالم ، والاشتراكية البرجوازية تنظم هذا التصور المعزي وتسكبه في مجموعة قواعد ونظم متنوعة ، كاملة الى هذا الحد او ذاك . وهي عندما تدعو البروليتاريين الى تحقيق نظمها واتباع قواعدها ، والدخول بذلك الى ارض الميعاد الجديدة (٢١)، انما تدعوهم في الحقيقة الى القناعة والاكتفاء بالمجتمع الحالي ، ولكن مع التخلي عن نظرة البغض والمقت التي ينظرون بها اليه .

وهنالك شكل آخر من هذه الاشتراكية اقل انتظاما ولكنه عملي اكثر ، سعى الى تكريه العمال بكل حركة ثورية بان حاول

ان يبرهن لهم ان اي انقلاب او تغيير سياسي لا يعود عليهم باية فائدة ، وانما تغيير ظروف الحياة المادية ، اي العلاقات الاقتصادية ، هو وحده الذي يستطيع ان يفيدهم . وتجب الملاحظة بان هذه الاشتراكية لا تعني ابدأ من تغيير ظروف الحياة المادية هدم علاقات الانتاج البرجوازية الذي لا يمكن تحقيقه الا بالثورة ، بل تعني فقط تحقيق اصلاحات ادارية على اساس علاقات الانتاج البرجوازية نفسها ، اصلاحات لا تمس ، بالتالي ، في قليل او كثير علاقات الرأسمال بالعمل المأجور ، بل كل ما تفعله انها تخفض من البرجوازية نفقات حكومتها وتسهل لها ادارتها .

ولا تبلغ الاشتراكية البرجوازية الغاية القصوى في التعبير عن كنهها ومراميها بتمامها الا عندما تصبح نوعا بسيطا من المجاز والاستعارة .

التبادل الحر ! لمصلحة الطبقة العاملة ؛ الحماية الجمركية ! لمصلحة الطبقة العاملة ؛ سجون انفرادية ! لمصلحة الطبقة العاملة – هذه هي الكلمة الاخيرة للاشتراكية البرجوازية ، وهي حقا الكلمة الوحيدة التي قالتها جادة غير هازلة .

اذ ان الاشتراكية البرجوازية ، من ألفها الى يائها ، تنطوي عليها هذه العبارة ان البرجوازيين هم برجوازيون ، – لمصلحة الطبقة العاملة .

٣ – الاشتراكية والشيوعية الانتقاديتان الطوبويتان

ليس موضوع البحث هنا الادب الذي افصح في كل الثورات الحديثة الكبرى عن مطالب البروليتاريا (مثل كتابات بابوف وغيره) .

فان المحاولات الاولى المباشرة التي قامت بها البروليتاريا لتحقيق مصالحها الطبقية الخاصة في وقت عم فيه الغليان والثوران ، خلال مرحلة هدم المجتمع الاقطاعي ، انتهت بالضرورة الى الفشل نظراً لان البروليتاريا كانت غير متطورة ونظراً لغياب الظروف والشروط المادية اللازمة لتحريرها ، هذه الظروف التي لا يمكن ان تنشأ الا في العهد البرجوازي . ومن الواضح ان الادب الثوري الذي رافق حركات البروليتاريا هذه لا بد ان يكون ذا محتوى رجعي . وهو يدعو الى زهد عام وسواسية خشنة فظة

اما النظم الاشتراكية والشيوعية التي جاء بها سان-سيمون وفوريه واوين وسواهم ، فقد ظهرت في المرحلة الاولى غير المتطورة للنضال بين البروليتاريا والبرجوازية ، وهي المرحلة التي تكلمنا عنها فيما سبق (راجع فصل «البرجوازيون والبروليتاريون»)

صحيح ان مبتدعي هذه النظم يدركون التناقض والتناحر بين الطبقات ، وكذلك فعل عناصر الانحلال في المجتمع السائد نفسه . غير انهم لا يرون للبروليتاريا اية مبادرة تاريخية او اية حركة سياسية خاصة بها .

وبما ان نمو التناحر الطبقي يسير جنباً الى جنب مع نمو الصناعة ، فانهم كذلك لا يرون بعد نشوء الظروف المادية اللازمة لتحرير البروليتاريا ، ويباشرون في البحث عن علم اجتماعي ، عن قوانين اجتماعية ، لاجل خلق هذه الظروف

فتراهم يستعيضون عن النشاط الاجتماعي بنشاطهم الابداعي، وفي مكان الشروط التاريخية للتحرير يضعون شروطا خيالية ، وعوضاً عن تنظيم البروليتاريا التدريجي في طبقة يضعون تنظيما اجتماعيا كل تفاصيله من مبتكراتهم ومستقبل العالم في نظرهم يتقرر بالدعاية لبرامجهم ومشاريعهم عن المجتمع وتطبيقها .

الا انهم ، عند وضع برامجهم ومشاريعهم هذه ، يدركون انهم يهتمون قبل كل شيء بمصالح الطبقة العاملة ، بوصفها اكثر الطبقات تألما وتعسا فليست البروليتاريا بالنسبة اليهم الا اكثر الطبقات تألما وتأذيا فحسب .

الا ان الشكل الابتدائي لنضال الطبقات وكذلك وضعيتهم الاجتماعية الخاصة ، يدفعانهم الى اعتبار انفسهم فوق كل تناحر طبقي ، فيرغبون في تحسين احوال جميع اعضاء المجتمع حتى احسنهم حالا واكثرهم امتيازاً وتنعما . ولذا لا يكفون عن التوجه بندائهم الى المجتمع باسره دون تمييز ولا تفريق ، بل انهم غالبا ما يتوجهون الى الطبقة الحاكمة المسيطرة اذ يكفي في نظرهم ان يفهم المرء حقيقة مشروعهم ونظامهم ليعترف بانه احسن مشروع ممكن لتنظيم احسن مجتمع ممكن .

فهم يرفضون اذن كل عمل سياسي ، وينكرون على الخصوص كل عمل ثوري ويسعون الى بلوغ هدفهم بوسائل سلمية ، ويحاولون ان يشقوا الطريق لانجيلهم الاجتماعي الجديد بقوة المثال وبالقيام بتجارب على مقياس صغير مصيرها طبعا دائما الاخفاق والفشل

ولا ريب ان تصوير المجتمع المقبل تصويراً خياليا في عهد تنظر فيه البروليتاريا التي لا تزال ضعيفة التطور ، الى اوضاعها الخاصة بصورة هي ذاتها خيالية ، ان هذا التصوير ينشأ عن رغائب العمال الغريزية الاولى في تغيير تام كامل للمجتمع

الا ان هذه الكتابات الاشتراكية والشيوعية تحوي كذلك عناصر انتقادية ، فهي تهاجم المجتمع الحالي في قواعده واسسه ، ولذلك قدمت في حينها مواد قيمة جداً لانارة العمال وتثقيفهم وكانت التدابير العملية التي اقترحتها لما يجب ان يكون عليه

المجتمع المقبل ، مثل محو التضاد بين المدينة والريف والغاء العائلة والربح الخاص والعمل المأجور واعلان الانسجام والتناسق الاجتماعي وتحويل الدولة الى مجرد ادارة بسيطة تدير الانتاج — كل هذه التدابير المقترحة لا تفعل غير ان تعبر عن ضرورة زوال تناحر الطبقات ، هذا التناحر الذي لم يكن الا في بداية ظهوره اذ ذاك ، والذي لم يعرف منه واضعو هذه النظم سوى اشكاله الاولى المبهمة الغامضة المبلبلة ولذا ليس لهذه الاقتراحات سوى معنى طوبوي صرف .

ان اهمية الاشتراكية والشيوعيـــة الانتقاديتين الطوبويتين تتناسب عكساً مع التطور التاريخي . فكلما اشتد نضال الطبقات واتخذ شكلا واضحاً ، فان هذه الرغبة الخيالية في التعالي عليه ، وهذه الطريقة الخيالية في معارضته ، تفقدان كل معنى عملي وكل تبرير نظري . ولذلك اذا كان واضعو هذه النظم في كثير من النواحي ثوريين ، فان تلاميذهم يؤلفون دائما حلقات ضيقة مغلقة رجعية . فهم يتمسكون اشد التمسك بمفاهيم اساتذتهم القديمة ، بصرف النظر عن تطور البروليتاريا التاريخي المطرد ولذا يحاولون ، وهم بذلك منطقيون مع انفسهم ، الا يخففوا من حدة النضال الطبقي وان يوفقوا بين التناقضات وهم ما ينفكون يحلمون بتحقيق تدابيرهم الاجتماعية الخيالية عن طريق التجربة — وذلك باقامة «الفالانستيرات» المنعزلة ، او بانشاء مستعمرات في الداخل ["Home-colonies"] او بتأسيس «ايكاريـــة» • صغيرة تكون طبعة جيب عن ارض الميعاد الجديدة ، — ولاجل بناء جميع هذه القصور الهوائية الخيالية التي تولدها احلامهم يرون انفسهم

• الفالانستير (Phalanstère) — تعبير اطلقه فوريه على المجتمعات الاشتراكية التي تخيلها . وايكارية (Icarie) — اسم اطلقه كابه على بلد

مجبرين على الاستغاثـــة بقلوب وجيوب «محبي الخير» مـــن البرجوازيين . وبذلك يقعون شيئا فشيئا في عداد الاشتراكيين الرجعيين او المحافظين الذين سبق الكلام عنهم ، ولا يتميزون عنهم الا بادعاء علمي اكثر انتظاما وتنسيقا ، وبايمان بالمفعول العجيب الخارق لعلمهم الاجتماعي ايمانا يصل الى حد الخرافة والتعصب الاعمى .

فهم يعارضون اذن باصرار وعناد كل حركة سياسية للطبقة العاملة ، لان مثل هذه الحركة السياسية لا يتاتى ، حسب رأيهم ، الا عن كفر اعمى بالانجيل الجديد .

ان الاوينيين في انجلترا يعارضون الشارتيين (٢٢) وانصار فوريه في فرنسا يعارضون الاصلاحيين (٢٣)

٤

موقف الشيوعيين من مختلف احزاب المعارضة

حسب ما قلنا في الفصل الثاني ، يتضح موقف الشيوعيين من نفسه تجاه احزاب العمال المؤلفة سابقا ، وبالتالي ، فموقفهم واضح من الشارتيين في انجلترا ومن المصلحين الزراعيين في اميركا الشمالية .

تخيله ، ثم على مستعمرة شيوعية انشاها في اميركا (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية عام ١٨٨٨ .)

Home-colonies (مستعمـــرات داخل البلاد) هكذا سمى اوين مجتمعاته الشيوعية النموذجية وفالانستير هو اسم القصور الاجتماعية التي تخيلها فوريه . ايكاريا اسم بلد خيالي طوبوي وصف به كابه مؤسساته الشيوعية . (ملاحظة انجلس للطبعة الالمانية عام ١٨٩٠ .)

ان الشيوعيين يناضلون في سبيل المصالح والاهداف المباشرة لطبقة العاملة ، الا انهم في الحركة الحالية يدافعون في الوقت نفسه عن مستقبل الحركة . ففي فرنسا يتحالف الشيوعيون مع الحزب الاشتراكي- الديموقراطي • ضد البرجوازية المحافظة والراديكالية ، مع احتفاظهم بحق انتقاد العبارات والاوهام التي خلفتها التقاليد الثورية

وفي سويسرا يؤيدون الراديكاليين ، دون ان ينكروا ان هذا الحزب مؤلف من عناصر متناقضة ، قسم منها اشتراكي ديموقراطي بالمعنى الفرنسي للكلمة ، والقسم الآخر برجوازي راديكالي

وفي بولونيا يؤيد الشيوعيون الحزب الذي يرى في الثورة الزراعية شرط التحرير الوطني ، اي الحزب الذي قام بانتفاضة كراكوفيا عام ١٨٤٦ (٢٥) .

وفي المانيا يناضل الحزب الشيوعي بالاتفاق مع البرجوازية ما دامت تناضل هذه البرجوازية نضالاً ثوريا ضد النظام الملكي

• ان هذا الحزب كان يمثله في البرلمان ليدرو-رولان ، وفي الأدب لويس بلان ، وفي الصحافة اليومية جريدة "La Réforme" (٢٤) وقد اطلقوا اسم «الاشتراكي-الديموقراطي» على ذلك القسم من الحزب الديموقراطي او الجمهوري ، الذي كان يتصف لهذه الدرجة او تلك باللون الاشتراكي (ملاحظة انجلس للطبعة الانجليزية عام ١٨٨٨ .)

ان الحزب الاشتراكي-الديموقراطي في فرنسا كان يمثله في الحياة السياسية ليدرو-رولان ، وفي الأدب لويس بلان ، فهو بعيد اذن عن الاشتراكية-الديموقراطية الالمانية الحالية بعد السماء عن الارض . (ملاحظة انجلس للطبعة الالمانية عام ١٨٩٠ .)

المطلق وضد الملكية الاقطاعية العقارية ، وضد البرجوازية الصغيرة الرجعية .

الا انه لا يتغافل لحظة عن ايقاظ شعور واضح وادراك صريح لدى العمال عن التناحر العنيف القائم بين البرجوازية والبروليتاريا ، لأجل ان يتمكن العمال الالمان من الاستفادة على الفور من الظروف الاجتماعية والسياسية التي ترافق بالضرورة سيادة البرجوازية ، واستخدامها سلاحا ضد البرجوازية بالذات ، لكي يمكن اشهار النضال على البرجوازية نفسها ، اثر اسقاط الطبقات الرجعية في المانيا

ان انتباه الشيوعيين يتوجه بصورة خاصة نحو المانيا ، لانها على اعتاب ثورة برجوازية ، ولانها ستقوم بهذه الثورة في ظروف تكون فيها المدنية الاوروبية اكثر تقدما ورقيا ، ومع بروليتاريا متقدمة نامية اكثر مما كانت عليه في انجلترا في القرن السابع عشر وفي فرنسا في القرن الثامن عشر . فالثورة البرجوازية الالمانية لا تكون ، بالتالي ، سوى بداية وتمهيد مباشر لثورة بروليتارية

والخلاصة ان الشيوعيين يؤيدون في كل قطر من الاقطار كل حركة ثورية ضد النظام الاجتماعي والسياسي القائم .

وفي كل هذه الحركات يضعون في المقدمة مسالة الملكية باعتبار انها المسالة الاساسية في الحركة ، مهما كانت الدرجة التي بلغتها هذه المسالة في تطورها

واخيراً ، يعمل الشيوعيون على الاتحاد والتفاهم بين الاحزاب الديموقراطية في جميع الاقطار .

ويترفع الشيوعيون عن اخفاء آرائهم ومقاصدهم ، ويعلنون صراحة ان اهدافهم لا يمكن بلوغها وتحقيقها الا بدك كل النظام

الاجتماعي القائم بالعنف . فلترتعش الطبقات الحاكمة امام الثورة الشيوعية . فليس للبروليتاريا ما تفقده فيها سوى قيودهـــا واغلالها ، وتربح من ورائها عالما بأسره .

يا عمال العالم ، اتحدوا !

كتبه ماركس وانجلس في
كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٧ ـ
كانون الثاني (يناير) ١٨٤٨
نشر لاول مرة بطبعة خاصة
باللغة الالمانية في لندن
في شباط (فبراير) ١٨٤٨

يصدر حسب نص
الطبعة الالمانية عـام ١٨٩٠
تمت الترجمة نقلاً عن الالمانية